المطلب التاسع عشر

مناظرة الإمام أحمد بن حنبل لأهل البدعة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تناولنا في المطلب السابق الحديث عن عقيدة السلف الصالح في إثبات صفة الكلام وتوحيد الله ﷿ فيها، وذكرنا أدلتهم على ذلك، وبينا أقوال الناس في صفة الكلام بين النفي والإثبات، وكذلك تناول الحديث مناقشة الأشعرية في الكلام النفسي والرد عليهم، وأن مذهبهم في صفة الكلام لا يمكن وصفه بالوسطية.

ثم تناولنا الحديث عن كيفية ظهور بدعة القول بخلق القرآن؟ وناقشنا الرسالة التي ألزم فيها الخليفة المأمون سائر الأمة بالقول بخلق القرآن وكيفية الرد عليه، وبينا بطلان ادعاء المأمون أن أهل السنة يكفرون المعتزلة، وعلمنا أن إحداث البدعة يفتح بابا لتوالي الابتداع في دين الله ﷿ .

وفي هذا المطلب نتناول بإذن الله ﷿ الحديث عن البدعة الكبرى وكيف كان علماء السلف يناظرون المبتدعة مهما علت سطوتهم، وذلك من خلال المحاور التالية:

• مناظرة علماء السنة للمبتدعة في خلق القرآن.

قال المأمون بن هارون لنائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم: (واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مساءلتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله، وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين) [(١)].

هذا كتاب المأمون الذي حمل من ألوان الفتنة وأنواع الضلال بسبب تبنيه للأصول الخمسة عند أهل الاعتزال، وهو يدل بحق على مقدار البلاء الذي حل بالأمة الإسلامية بسبب الآراء الاعتزالية، فقد أمر الوالي إسحاق بن إبراهيم أن يجمع من بحضرته من القضاة، وأن يقرأ هذا الكتاب عليهم، ويبدأ في امتحانهم، والكشف عن اعتقادهم، وأن يقرأ هذا الخطاب عليهم مرارا حتى يدركوا مراد الخلفية منهم.

وقد كان رد الفعل في بغداد أن الوالي إسحاق بن إبراهيم أحضر الفقهاء والمحدثين والقضاة، وكان من أبرزهم أحمد بن حنبل، وأبو حيان الزيادي، وبشر بن الوليد الكندي، وعلى بن أبي مقاتل، وسعدويه الواسطي، وعلى بن الجعد، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرش، وابن علية الأكبر، ويحي بن عبد الحميد العمري، وشيخ آخر من سلالة

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٥/١٨٧.

عمر كان قاضيا على الرقة، وأبو نصر التمار، وأبو معمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح، وابن الفرخان، والنضر بن شميلة، وأبو على بن عاصم، وأبو العوام البارد، وأبو شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق، وجماعة من أهل العلم، قرأ عليهم خطاب المأمون مرتين حتى فهموه.

ثم سأل بشر بن الوليد عن القرآن؟ فقال بشر: قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة: القرآن كلام الله. قال إسحاق بن إبراهيم: أمخلوق هو؟ قال بشر: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ الرعد:١٦. قال إسحاق: أليس القرآن شيء؟ قال بشر: هو شيء. قال إسحاق: فمخلوق هو؟ قال: ليس بخالق. قال إسحاق: ليس أسألك عن هذا. قال بشر: لا أحسن غير ما قلت، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت [1].

أراد بشر بن الوليد الكندي أن يحيد عن الجواب، فهو يبطن اعتقاد السلف، ولكنه أراد أن يحيد عن الإجابة التي يريدونها ليتخلص من امتحان الوالي وبطش الخليفة محتجا بقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ الرعد:١٦. فيسكتوا عنه، لأن العموم في الآية مخصوص بالمخلوقات فقط، أما ذات الله ﷻ وصفاته ومنها صفة الكلام وما تكلم الله ﷻ به في القرآن، فلا يندرج تحت عموم الآية.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣١٠ نشر مطبعة السعادة، مصر.

والدليل على أنه سبحانه لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة قوله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد فأهلكتهم: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الأحقاف:٢٥. وقد أتت تلك الريح على أشياء كثيرة لم تدمرها كمنازلهم ومساكنهم والجبال التي كانت بحضرتهم، فأتت عليها تلك الريح ولم تدمرها، وبالرغم من ذلك قال: تدمر كل شيء.

ومثل ذلك أيضا قول الهدهد عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ النمل:٢٣. وعرش سليمان عليه السلام كان موجودا وقتها، ولم تستحوذ عليه بلقيس، فكذلك إذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الرعد:١٦، لا يعني نفسه، ولا علمه، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة.

وقد أثبت الله عز وجل النفس له فقال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ طه:٤١. وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ آل عمران:٢٨. وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الأنعام:٥٤. وقال عز وجل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ المائدة:١١٦. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ آل عمران:١٨٥. فالعقلاء يعلمون أن الله عز وجل لا يعني نفسه مع الأنفس التي تذوق الموت، فكذلك إذا قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الرعد:١٦. لا يعني نفسه، ولا علمه، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة.

ومن ثم فإن القول الذي عليه السلف الصالح أن الله عز وجل خالق كل

شيء من الممكنات، أو المخلوقات، أما القرآن الذي تكلم به الله ﷻ وبدا من كلامه فليس بمخلوق، بل كلام الله ﷻ وصف أزلي قائم بالذات، وهو سبحانه شيء لا كسائر الأشياء، ولا يطبق عليه ما يطبق على سائر الأشياء. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى: ١١. وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ النحل: ٧٤.

ولما قال بشر بن الوليد: لا أحسن غير ما قلت، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غيرُ ما قلت، أخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه مكتوب فيها إقرار سيوقع عليه كل من لا يقر بخلق القرآن، وكان فيها: "أشهد أن الله واحد أحد، فرد صمد، لم يكن قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه" . فقرأها إسحاق بن إبراهيم على بشر بن الوليد الكندي وقال له: أتشهد على ما في هذه الرقعة؟ قال بشر: نعم، فقال إسحاق لكاتبه: أكتب ما قال [1].

- **التلبيس والخلط بين القدر المشترك والقدر الفارق.**

لكن العبارة التي أشهده عليها عبارة مرنة، ظاهرها حق، وفي داخلها

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٥/١٩٠. والكامل في التاريخ لابن الأثير، حوادث سنة ثماني عشرة ومائتين. ذكر المحنة بالقرآن المجيد ٦/٤، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

إقرار ضمني بمذهب المعتزلة، لأن معنى أن الله ﷻ لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا في وجه من الوجوه، يلزم منها عندهم نفي الصفات عن الله ﷻ مطلقا، كالسمع والبصر والكلام وغير ذلك، لأن المخلوق له صفات أيضا كالسمع والبصر والكلام، فالاجتماع في الألفاظ العامة المشتركة يوجب عند المعتزلة التشبيه والتمثيل، وهذا من فساد الفطرة، وخراب العقل، لأن التشبيه لا يكون إلا إذا قال: سمع الله مثل سمعي، وبصره كبصري، وكلامه ككلامي فهذا تشبيه. ومن ثم فقد أخطأ بشر بن الوليد الكندي حين أقر بهذه العبارة على إطلاقها وسوف نرى موقف الإمام أحمد منها.

ثم توجه الوالي إسحاق بن إبراهيم إلى على بن مقاتل فسأله عن قوله وعقيدته في القرآن، فقال على: هو كلام الله ﷻ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. ثم قال: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب الرسول ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها، فأشهده على الرقعة التي فيها: أشهد أن الله واحد أحد فرد صمد، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه. وقال له: أتشهد على ما في هذه الرقعة قال: نعم، فقال إسحاق لكاتبه: أكتب ما قال.

ثم توجه إلى أبي حسان الزيادي وسأله عن القرآن فقال: القرآن كلام الله، والله ﷻ خالق كل شيء، وما دون الله ﷻ مخلوق، وأمير المؤمنين قلده الله ﷻ أمرنا يقيم حجنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، وإن

أمرنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، قال إسحاق بن إبراهيم: القرآن مخلوق؟ فأعاد أبو إسحاق ما قاله، قال إسحاق: إن هذه مقالة أمير المؤمنين، قال أبو حسان: قد تكون مقالة أمير المؤمنين، ولا يأمر بها الناس، ولا يدعوهم إليها، إن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول بخلق القرآن قلت به، قال إسحاق: ما أمرني أن أبلغك شيئا، إنما أمرني أن أمتحنك، فأشهده على الرقعة فشهد، وكتب جوابه.

ثم جاء دور الإمام أحمد في محنته، وهو قوي بسيف الحق في حجته، صريح في دليله ومقولته، لا يلمح ولا يلوح، ظاهره ينبئ عن باطنه، لا يستخدم الحيدة أو التأويل، فهو بحول الله ﷻ على الحق قائم، ولا يخشى في الله ﷻ لومة لائم، فقال له بن إبراهيم: ما تقول في القرآن؟ قال أحمد: هو كلام الله ﷻ، قال إسحاق: أمخلوق هو؟ قال أحمد: هو كلام الله ﷻ ولا أزيد على ذلك، قال إسحاق بن إبراهيم أتوافق على الرقعة التي فيها: أشهد أن الله واحد أحد فرد صمد، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه؟ قال الإمام أحمد رحمه الله أقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١، ورفض ما في الرقعة لاشتمالها على حق وباطل.

وقد التزم الإمام أحمد بمنهج أهل السنة فأثبت القدر الفارق ولم يمثل، وأثبت القدر المشترك ولم يعطل، وأمسك عن عبارة: ولا يشبهه أحد من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه.

قال أحد الحاضرين من المعتزلة ينبئ عن جهله بصفات الله ﷻ يقال له ابن البكاء الصغير، قال لإسحاق بن إبراهيم: يا أمير، إنه يقول: سميع بأذن بصير بعين، قال إسحاق لأحمد: ماذا أردت بقولك وهو السميع البصير؟ قال أحمد مفحما لهما: أردت منها ما أراده الله ورسوله.

ثم اختبرهم رجلا رجلا، وكتب ما كان منهم، وبعث جوابهم إلى الخليفة المأمون بن هارون. فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم إسحاق بن إبراهيم وإلي الخليفة على بغداد، وقد ورد الكتاب الثاني للخليفة المأمون وقد جاء فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابَ كتابه إليك، فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة، وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة، وما كان من قولهم في القرآن لما أمرك أمير المؤمنين بامتحانهم، وتكشيف أحوالهم، فأما ما قاله المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وادعاء تركه الكلام في ذلك، واستعهاده أمير المؤمنين، فقد كذب بشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر.

ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر، أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق، فادعه إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأنصصه عن قوله في القرآن، واستتبه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصريح

والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها، فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصر على شركه، ورفض أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله. وكذلك إبراهيم بن المهدي، فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا؛ فإنه كان يقول بقوله، فإن قال: إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وأكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله، وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته) [(١)].

وقد سمى الخليفة المأمون في خطابه رجلا رجلا ثم قال: (ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصحهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله. وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية، ولم ينتظر اجتماع الكتب

---

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/٤١ نشر دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع. وتاريخ الإسلام للذهبي ١٥/٢٣. والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢/٢٢١. وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١/٣١١.

الخرائطية ـ يعني الرسائل العادية ـ معجلا به تقربا إلى الله ﷻ بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمل من جميل ثواب الله عليه، فأنفذ لما أتاك من أمر المؤمنين، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط، لتعريف أمير المؤمنين ما يعلم شاء الله) [1].

عند ذلك أدرك المحدثون والفقهاء وعلماء السلف أن الخليفة قد أجمع أمره، وأنه فوض نائبه في بغداد إسحاق بن إبراهيم بقطع الرقاب، وأن الأمر شديد، فأجابوا مكرهين متأولين قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ النحل:١٠٦.

أجاب القوم كلهم إلى أن القرآن مخلوق حين دعاهم إسحاق بن إبراهيم، وأعاد امتحانهم، ولم يمتنع إلا أربعة نفر منهم الإمام أحمد بن حنبل والحَسَنُ بْنُ حَمَّادٍ الحَضْرَمِيُّ المكني بسجادة، وعبيد الله بن عمر القواريري، ومحمد بن نوح.

أمر إسحاق بن إبراهيم باعتقالهم وشدهم في الحديد ووضعهم في السجن، ثم في اليوم الثاني دعاهم جميعا، فأتي بهم يساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجادةُ الحَسَنُ بن حَمَّاد إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله، وأصر الآخرون على قولهم، فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا، فأعاد عليهم القول، فأجاب عبيد

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ١٩٣/٥.

الله بن عمر القواريري إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله.

وأصر الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما في نفي خلق القرآن، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يستجيبا لوالي الخليفة، فزاد إسحاق بن إبراهيم من قيودهما في الحديد، ووضعهما في سجن بغداد، استعدادا لترحيلهما إلى الخليفة المأمون. وكان إسحاق بن إبراهيم قد كتب للمأمون كلاما خاصا عن الإمام أحمد يلفت نظر الخليفة إلى أن له منزلةً في قلوب الأمة من حيث العلم والصدق والزهد في الدنيا، وأنه يرى الطاعة لأمير المؤمنين.

- **ثبات الإمام أحمد على إثبات توحيد الصفات.**

أُخْرِج أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح من سجن بغداد متوجهين إلى الخليفة المأمون، وكان بطرسوس أحد المدن في شمال الشام تقع على نهر طرسوس، حيث كان المأمون بن هارون وقتها في طريقه لغزو الروم [1].

أكد إسحاق بن إبراهيم قيودهما وجمعهما في سلسلة واحدة وعلى بعير واحد متعادلين، الإمام أحمد في ناحية، ومحمد بن نوح في الناحية الأخرى، بصورة مذرية مشينة تدل على مدى الغضب الذي هيمن على المأمون ونائبه، ومدى الثبات الذي عليه إمام أهل السنة وصاحبه.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٢ بتصرف.

وفي الطريق قيل لأحمد: ألا ترى الباطل، كيف ظهر على الحق؟ قال: كلا إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل قلوب الرجال من الهدى إلى الضلال، وقلوبنا بعد لازمة للحق [1].

وهذا الكلام يدل على وصف هام يتميز به دعاة أهل السنة، وهو يقينهم بالله ﷻ الذي يقلب الأمور في خلقه، وله علو القهر في ملكه، وله القوة المطلقة التي يمكن بها لأوليائه، وإن طالت صولة الباطل، فهو سبحانه الذي ابتلى الظالمين بتلك القوة، وهو الذي سيحاسبهم لا محالة، ولكن تمسك القلب بالحق هو الذي يبني الأمة ولو بعد حين. ومن ثم فإن الدعوة لإصلاح القلوب بحسن الاعتقاد في الله وإخلاص العبودية له هو الشغل الشاغل لأتباع الأنبياء والمرسلين، فإذا انصلحت القلوب ستنصلح الأركان في أبدانها، ثم تنصلح الدنيا بأسرها.

وفي الطريق جاءه رجل أعرابي من العابدين الزاهدين يقال له جابر بن عامر فقال: من يدل على أحمد بن حنبل؟ فأشاروا إليه وهو مقيد بالحديد، فسلم على الإمام وقال له: يا هذا، إنك وافد الناس اليوم فلا تكن شؤما عليهم، وإنك رأس الناس، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزار الناس إلى يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر، فإن ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميدا. قال أحمد رحمه الله: كان

---

(١) السابق ٣٣٢/١٠.

كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من رد الذي يدعونني إليه [١].

لقيهما في الطريق أيضا أبو جعفر الأنباري فقال للإمام أحمد: أنت اليوم رأس الناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم بشيء، فجعل الإمام أحمد يقول له: ما شاء الله كائن، ما شاء الله ما سيكون [٢].

قال الربيع: بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل، فأتيته وقد انتهى من صلاة الفجر، فدفعت إليه الكتاب فقال: أقرأته؟ قلت: لا، قال أحمد: يذكر الشافعي أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه مني السلام، وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم، يرفع الله لك علما إلى يوم القيامة [٣].

وانطلقا السفيران عن مذهب أهل السنة والجماعة القائمان بكلمة الحق، وهما يعلمان أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما ثبت عند أبي داود من حديث أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (أَفْضَل الجِهَادِ كَلمَةُ عَدْل عِنْدَ سُلطَان جَائِر، أَوْ أَمِير

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٣١٣. وانظر السابق ١٠/٣٣٢.
(٢) تهذيب الكمال ١/٤٦٠ .
(٣) البداية والنهاية ١٠/٣٣١.

جَائِرٍ) [(١)].

انطلقا السفيران يجران أقيادهما في الطريق إلى طرسوس حيث ينتظرهما المأمون بن هارون، حتى اقتربا من معسكر الخليفة في الثامن عشر من رجب سنة ٢١٨هـ، ولم يكن في آذان الناس وقتها إلا الأسماء الثلاثة: المأمون أمير المؤمنين خليفة المسلمين، وهو شاهر سيفه يتهدد ويتوعد، إن لم يجبه الأسيران بخلق القرآن ضرب منهم الأعناق، وأحمد بن حنبل سفير عن عامة الناس، وكل من أجاب المأمون تقية، أو خوفا على نفسه وأهله، ومحمد بن نوح وهو دون الإمام في العلم، لكنه كان أقوم الناس بأمر الله ﷻ في وجه الخليفة، وهما يحشران إلى المأمون بن هارون. والرأي العام في المدن والقرى وفي بغداد وما حولها ينتظر بأسف وحزن أخبار المذبحة التي ستحدث عما قريب.

ولكن سيف الحق أقوى من سيف المأمون، والله ﷻ غالب على أمره وهو سبحانه القائل في كتابه: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ** ﴾ إبراهيم:٤٢.

لما اقتربا من معسكر الخليفة ونزلوا على مسافة منه، قال له محمد

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ١٢٤/٤ (٤٣٤٤). وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٢٩/٢ (٤٠١١). وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح ابن ماجه (٤٠١١). وصحيح الجامع (١١٠٠).

نوح: يا أحمد إني موصيك بوصية فاحفظها عني، راقب الله في السراء والضراء، واشكره على الشدة والرخاء، وإن دعانا هذا الرجل أن نقول القرآن مخلوق فلا تقل، وإن أنا قلت فلا تركن إلى، وتأول قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ هود:١١٣[١].

ثم جاء خادم المأمون وسيافه يبكي ويمسح دموعه ويقول: يعز على يا أبا عبد الله، إن المأمون قد سل سيفا لم يسلله من قبل، وأقسم بقرابته من رسول الله ﷺ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف.

كان قلبه مع الإمام أحمد وبدنه موظف في خدمة الخليفة، فرفع الإمام أحمد بصره إلى السماء، وجثى على ركبتيه، ودعا ربه قائلا: سيدي ومولاي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته، فما أن انتهى من دعائه حتى طار الخبر في كل مكان، في الثلث الأخير من الليل، مات المأمون، مات الخليفة، ودخل رجل يبشرهم قائلا: البشرى قد هلك الرجل[٢].

استجاب الله ﷻ للإمام أحمد ولم يلق المأمون، قال تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني .

(٢) البداية والنهاية ٣٣٢/١٠ بتصرف.

تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ إبراهيم:٤٢. وقال: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنعام:٤٥، وقال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ هود:١١٣.

- **استعانة أهل السنة بربهم في محاربة البدعة.**

مات المأمون غير مأسوف عليه، فقد جمع أهل البدعة والضلالة وقربهم إليه، وآزرهم ومكنهم من رقاب العباد، فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، مع أنه كان مسلما يحب العلم والفقه لكنه لم يكن له بصيرة نافذة فيه، فدخلت عليه بسبب جهله الدواخل، وراج عنده بقصر نظره الباطل، ودعا العلماء بالقوة إلى ما ذهب إليه، وحمل عامة الناس قهرا عليه، وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته.

وقد تأكد للعامة قبل الخاصة صدق ما عليه إمام أهل السنة، وقويت مكانته في القلوب، وتعلقت به النفوس، ولكن المعتصم الذي تولى الخلافة بعد هلاك المأمون لم يتعظ بما حدث لأخيه، إذ أخذ ينفذ وصيته التي وصاه بها قبل موته بلحظات قائلا: خذ بسيرة أخيك في خلق القرآن، واجعل قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك. فأمر المعتصم بردهما إلى بغداد، وتجديد اعتقالهما حتى يفرغ لهما، وحتى تهدأ الأمور في الدولة، فلو قتلهما أو عذبهما قد لا يأمن على دولته من ثورة الرأي العام، أو حدوث انقلاب في البلاد، فكانت الدواعي السياسية تحتم عليه الانتظار، وتأجيل الأمر حتى

يتمكن من إحكام قبضته وإخضاع العامة والأمة له.

لم يتحمل محمد بن نوح في طريق العودة إلى بغداد آثار القيود والإهانة، وهو في عنفوان شبابه فمات رحمه الله، وأكد على الإمام أحمد في وصيته له قبل موته قائلا: يا أبا عبد الله، الله اللهَ، إنك لست مثلي، أنت رجل يقتدي به، وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله.

صلى عليه الإمام أحمد ودفنه في الطريق، وكان يقول عنه: ما رأيت أحدا على حداثة سنه وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح [(١)].

وبقى الإمام أحمد بن حنبل وحيدا في تلك المحنة سجينا في بغداد، والقيود في يديه ورجليه طيلة ثمانية وعشرين شهرا لم تحل عنه، وهو صامد صادق يؤم السجناء في سجن بغداد، ويخفف عنهم ويعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال له عمه إسحاق بن حنبل: يا بني لم لا تجيبهم إلى القول بخلق القرآن تقية؟ فقال أحمد: وكيف تصنعون بحديث خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ، قَال: (شَكَوْنا إلى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَة لهُ فِي ظِل الكَعْبَةِ، قُلنَا لهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لنَا؟ أَلا تَدْعُو اللهَ لنَا؟ قَال: كَانَ الرَّجُل فِيمَنْ قَبْلكُمْ يُحْفَرُ لهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَل فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ

---

(١) الوافي بالوفيات ١/٦٣٨.

لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَب، وَمَا يَصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا اللهَ أَوِ الذِّئبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلونَ) (١).

ثم قال رحمه الله: وإذا سكت العالم تقية، والجاهل يجهل، فمتى يظهر الحق؟ إني لا أبالي بالحبس، فما هو ومنزلي إلا واحد، ولا قتلا بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف أن لا أصبر فأوافقهم. قال أحد السجناء: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هما إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي؟ (٢).

وبعد أن تلاحقت عليه ثلاث سنوات، وهو في أغلاله حولوه من السجن العام إلى دار إسحاق بن إبراهيم وإلي الخليفة على بغداد، ليتداولوه على انفراد قبل أن يدخل على الخليفة في داره، فناظروه وغلبهم في الحجة، فقالوا له: يا أحمد، إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آثر إن لم تجبه أن يضربك، وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس. فلم يعبأ بهم وقال: يأتوني بآية من كتاب الله ﷻ وأنا أجيبهم.

زادوا قيوده الحديدية حتى أصبحت في رجله أربعة، فلم يستطع أن يمشي بها، فربطها في تكة السروال، وحملها بيده من ثقلها، ثم جاءوا

---

(١) البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٣/١٣٢٢ (٣٤١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٢٤٠ بتصرف.

بدابة وحملوه عليها، فكاد أن يسقط على وجهه من ثقل القيود، وليس معه أحد يمسكه على الدابة، فسلم الله ﷻ حتى جاءوا دار المعتصم [(١)].

وخرج الخليفة على قومه في زينته، والحاضرون يرتجفون من بطشه وقوته، ورهط السوء من المعتزلة يشعلون قلب المعتصم بفتنته، وعلى رأسهم قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وعبد الرحمن بن إسحاق، وغيرهم مجموعون لليوم المشهود، يوحون إلى الخليفة أنه داعي العدل والتوحيد والصدق، وأنهم معه مجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الحق، وهم في حقيقة أمرهم متقولون على الله ورسوله ﷺ [(٢)].

وكان صاحب السجن قد ضرب عنق رجلين في ذلك اليوم، لترتجف القلوب والجلادون وقوف، والسياط كالسيوف، ورهبة لا يسلم منها إلا من جعل خوفه من الله ﷻ أقوى، ويقينه بنصر الله ﷻ وتأييده لأوليائه وحزبه أعلى.

- **مناظرة الإمام أحمد لأهل البدعة بين يدي المعتصم.**

ولما أدخلوا الإمام أحمد بن حنبل على أمير المؤمنين المعتصم، قال المعتصم: قربوه، فلم يزل يقربوه حتى أجلسه المعتصم بجواره.

قال الإمام أحمد: فجلست وقد أثقلتني القيود، فمكثت قليلا ثم قلت: تأذن لي في الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: تكلم. فقلت: إلى ما

---

(١) السابق ١١/٢٤٤ بتصرف.

(٢) السابق ١١/٢٤٥ بتصرف.

دعا ابن عمك رسول الله ﷺ؟ قال المعتصم: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. فقلت له: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله. ثم قلت: إن جدك عبد الله بن عباس قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألوه عن الإيمان بالله وحده؟ فقال لهم: أتدرون ما الإيمان؟ فقالوا: الله وسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم [(١)].

قال الخليفة المعتصم: لولا أني وجدتك في يدي أخي المأمون ما تعرضت لك. ثم قال: يا عبد الرحمن بن إسحاق: ألم آمرك برفع المحنة؟ ناظروه وكلموه، ناظره يا عبد الرحمن. فقال: ما تقول في القرآن؟ قال أحمد: فلم أجبه. فقال المعتصم: أجبه. فقلت: ما تقول في علم الله؟ فسكت عبد الرحمن، قال أحمد: القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق، فقد كفر بالله. فسكت عبد الرحمن. فقالت حاشية الخليفة فيما بينهم: يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا. فلم يلتفت المعتصم إلى ذلك. فقال عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن.

قال الإمام أحمد: كان الله ولا علم، فسكت عبد الرحمن. قال أحمد: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ أو سنة رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان ١/٢٩ (٥٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه ١/٤٦ (١٧).

حتى أقول به [١].

لقد اعتمد الإمام أحمد في حجته لإثبات صفة الكلام على إثبات الأزلية في صفات الأفعال ومنها صفة التكليم، كالأزلية في صفات الذات التي هي من لوازم الكمال، فباعتبار أصل الصفة وملازمتها للذات فلم يزل الله ﷻ ولا يزال متصفا بها، كصفة الكلام فإنها صفة ذاتية باعتبار أصله والقدرة عليه، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلما، فالكلام من لوازم الكمال وضده من أوصاف النقص، والله سبحانه له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته.

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام وشأنه مع قومه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنبياء:٦٢/٦٣. فدلت الآية على أن صفة الكلام من لوازم الكمال للمعبود.

أما باعتبار تعلق صفة الكلام بمشيئة الله ﷻ وقدرته، فالكلام صفة فعلية باعتبار أنه سبحانه يتكلم في وقت دون وقت، فالله ﷻ متصف بالكلام في الأزل، وشاء أن يتكلم بالقرآن، وينزله وحيا عربيا على محمد ﷺ فتم ما شاءه، أما قبل خلق السماوات والأرض وخلق اللوح والقلم ووجود محمد ﷺ كان القرآن في العلم الأزلي، فكل صفة كمال تعلقت بمشيئة الله تعالى فإنها تابعة لعلمه وحكمته كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٢.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ الإنسان: ٣٠ [(١)].

ولهذا رد الإمام أحمد صفة الكلام باعتبارها صفة من صفات الأفعال إلى صفة العلم باعتبارها صفة من صفات الذات، وهذا يدل على سعة علمه وفهمه رحمه الله.

• النصوص التي استدل بها المعطلة على القول بخلق القرآن.

قال بعض الحاضرين للإمام أحمد: أليس قد قال الله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ٦٢﴾ الزمر: ٦٢. القرآن أليس هو شيء؟

قال أحمد: قال الله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الأحقاف: ٢٥. فهل دمرت إلا ما أراد الله ﷻ؟ قد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها، كمنازلهم ومساكنهم والجبال التي بحضرتهم، فأتت عليها تلك الريح ولم تدمرها وبالرغم من ذلك قال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ﴾.

وقد ذكر الله كلامه في غير موضع من القرآن فسماه كلاما، ولم يسمه خلقا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٦. ولم يقل حتى يسمع خلق الله، فهذا منصوص بلسان عربي مبين لا يحتاج إلى تفسير [(٢)].

قال بعض الحاضرين للإمام أحمد: أليس قد قال الله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/١٣٣ بتصرف.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢/٤٧، والبداية والنهاية ١٠/٣٣٢ بتصرف.

﴿ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ الأنبياء:٢. أفيكون محدثا إلا مخلوقا؟ قال أحمد رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ ص:١. والذكر هو القرآن، وتلك ليس فيها ألف ولا لام، فالمراد هو ذكر الرسول ﷺ، وذكر الرسول ﷺ يجري عليه الحدث، أما ذكر الله ﷻ إذا ورد لا يجري عليه الحدث، قال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ العنكبوت:٤٥. فعلم النبي ﷺ وكلامه فهو محدث مخلوق.

والشيئان بقياس الأولى إذا اجتمعا في اسم يجمعهما، فكان أحدهما أعلى من الآخر ثم جرى عليهما اسم مدح، كان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه، وإن جرى عليهما اسم ذم فأدناهما أولى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ البقرة:١٤٣، فالمؤمن أولى برحمته سبحانه من الكافر، وإن كانا يجتمعان في اسم الناس. وكذلك لما قال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ الأنبياء:٢. جمع بين ذكرين، ذكر الله ﷻ وذكر نبيه ﷺ، فأما ذكر الله ﷻ إذا انفرد لم يجر عليه اسم الحدث [1].

ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ العنكبوت:٤٥، وقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ الأنبياء:٥٠. وإذا انفرد ذكر النبي ﷺ، فإنه جرى عليه اسم الحدث، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ الصافات:٩٦، فذكر النبي خلقه الله ﷻ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٤٥ بتصرف.

وأحدثه، وقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الذاريات:٥٥. وقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ الأعلى:٩. وقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الغاشية:٢١. فالله ﷻ جمع بين ذكرين في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ الأنبياء:٢. فأوقع الحدث على المبلغ المذكر وهو رسول الله ﷺ، فهو سبب لإظهار كلام الله والنبي ﷺ مخلوق محدث، أما المتكلم الأول قبل خلق القائلين فهو الله ﷻ، وكلامه صفته ليس بمخلوق [(١)].

وقد استمرت المناظرة عدة ساعات، والإمام أحمد واقف يجادلهم ويناظرهم، ويغلبهم في الحجة، والخليفة المعتصم يعلوه الهم والغم، ويرى ضعف أتباعه من المعتزلة في مواجهته، كلما استدلوا بدليل بَّين للخليفة بطلانه، فربما يستدلون بآية في غير موضعها، وربما يحرفون المعاني عن دلالتها.

ذكر بعضهم في المناظرة حديث عمران بن حصين ﷺ، فقال محرفا للحديث إن رسول الله ﷺ يقول: إن الله ﷻ خلق الذكر، والذكر هو القرآن. قال أحمد: هذا خطأ، حدثنا غير واحد: إن الله كتب الذكر.

وحديث عمران رواه البخاري في صحيحه عن صفوانَ بن مُحرزٍ عن عَمرانَ بن حُصينٍ ﷺ قال: (إنِّي عندَ النبيِّ ﷺ إذ جاءهُ قومٌ من بني تميم فقال: اقبَلوا البُشرى يا بنِي تميم، قالوا: بشَّرْتنا فأعطِنا، فدخل

(١) حلية الأولياء ٩/١٩٧.

ناسٌ من أهل اليمن فقال: أقبلوا البُشرَى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلنا جئناك لنتفقه في الدِّين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان، قال: كان اللهَ ولم يكن شيء قبلهُ، وكان عرشه على الماء، ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ، وكتب في الذكر كل شيء) (١).

واحتج بعضهم على خلق القرآن بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ الزخرف:٣. فكل مجعول مخلوق، فأجاب الإمام أحمد: ليس كل مجعول مخلوق، وقد تقدم الحديث عن ذلك بما يغني عن إعادته. وقد فتح الله ﷻ على الإمام أحمد بن حنبل بمعاني النصوص، وأفاض عليه بالحجج والردود، وانقطع الآخرون وأصابهم اليأس؛ فانطلقوا يشتمون ويقسمون قسم العاجزين (٢).

قال سليمان بن عبد الله: أتيت إلى باب المعتصم، وإذا الناس قد ازدحموا على بابه كيوم العيد، فدخلت الدار فرأيت بساطا مبسوطا وكرسيا مطروحا، فوقفت بإزاء الكرسي، فبينما أنا قائم، إذا المعتصم قد أقبل، فجلس على الكرسي، ونزع نعله من رجله، ووضع رجلا على رجل، ثم قال: يحضر أحمد بن حنبل، فأحضر، فلما وقف بين يديه وسلم عليه. قال له: يا أحمد تكلم ولا تخف. فقال أحمد: والله يا أمير المؤمنين لقد دخلت عليك، وما في قلبي مثقال حبة من الفزع. فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق، قال

---

(١) البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٦/٢٦٩٩ (٦٩٨٢).

(٢) حلية الأولياء ٩/١٩٧بتصرف.

الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ التوبة:٦. فقال له المعتصم: هل عندك حجة غيرُ هذا؟ فقال أحمد: نعم يا أمير المؤمنين قوله ﷻ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾ الرحمن:١/٣. ولم يقل الرحمن خلق القرآن كما خَلق الإِنسان. وقوله ﷻ: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ يس:١/٢، ولم يقل يَس والقرآن المخلوق. فقال المعتصم: ناظروه. فلما غلبهم قال: احبسوه، فحبس وتفرق الناس [1].

وفي اليوم الثاني أحضروه إلى دار الخليفة، قال سليمان بن عبد الله: فلما أصبحت قصدت باب الخليفة، فأدخل الناس فدخلت معهم، فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه، فقال: هاتوا أحمد بن حنبل، فجيء به، فلما أن وقف بين يديه، قال له المعتصم: كيف كنت يا أحمد في محبسك البارحة؟ فقال: بخير والحمد لله، إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمرا عجبا. قال له: وما رأيت؟ قال: قمت في نصف الليل، فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين، فقرأت في ركعة: الحمد لله، وقل أعوذ برب الفلق، وفي الثانية: الحمد لله، وقل أعوذ برب الناس، ثم جلست وتشهدت وسلمت، ثم قمت فكبرت لكي أصلي ركعتين، وقرأت: الحمد لله، وأردت أن أقرأ: قل هو الله أحد فلم أقدر، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر، فمددت عيني في

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٢ بتصرف.

زاوية السجن، فإذا القرآن ميتا وجثته مغطاة، فغسلته وكفنته، وصليت عليه، ودفنته في زاوية من زوايا السجن. فقال له: ويلك يا أحمد وهل القرآن يموت؟ فقال له أحمد: أنت تقول إنه مخلوق، وكل مخلوق يموت، فقال: المعتصم قهرنا أحمد قهرنا أحمد، فقال: ابن أبي دؤاد وبشر المريسي اقتله حتى نستريح منه فقال: إني قد عاهدت الله ﷻ أن لا أقتله بسيف [1].

قال قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع، وتتابع الحاضرون يلعنون ويسبون، فلم يأخذ الخليفة بتشويشهم وأهاب بهم قائلا: ناظروه وكلموه، فكانوا يتكلمون كلاما عقيما، يقدمون آراءهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال أحمد: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ.

ثم أقبل قاضي القضاة المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد أقبل على أحمد يكلمه ويناظره فلم يلتفت إليه لفرط جهله فهو لا يرقى للمناظرة، كما أنه قد رمى الإمام أحمد بالضلال والابتداع.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/١٦٤، وروي ذلك أيضا لعبَّادة أيام الخليفة الواثق حيث أدخل عليه والناس يُضربون ويقتلون في الامتحان فقال: أعظم الله أجرك أيها الخليفة، فقال: في من؟ قال في القرآن؟ قال: ويحك والقرآن يموت؟ قال: نعم، أليس كل مخلوق يموت؟ فإذا مات القرآن في شعبان فمن يصلي بالناس في رمضان؟ فقال: أخرجوه فإنه مجنون. انظر تاريخ دمشق ٢٦/٢٢١.

قال المعتصم لأحمد: ألا تكلم أبي عبد الله بن أبي دؤاد؟ قال أحمد: لا أعرفه من أهل العلم فأحدثه. فتوجه ابن أبي دؤاد بالكلام للخليفة وقال: أقسم يا أمير المؤمنين، إن استجابة أحمد لرأي الخليفة أحبُ إليه من مائتي ألف دينار، قال المعتصم: والله لئن أجابني لأطلقنه من قيوده بيدي. ثم قال: يا أحمد إني والله عليك لشفيق، وإني لأشفق عليك شفقتي على ابني هارون. قال أحمد: أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ.

وطال المجلس وغلب الهم على المعتصم، وانتقل من الترغيب إلى الترهيب فقال المعتصم: يا أحمد أما كنت تعرف صالح الرشيدي؟ قال أحمد: سمعت باسمه. قال المعتصم: لقد كان معلمي ومؤدبي، وكان في ذلك الموضع جالسا، وأشار إلى ناحية من القصر، فسألته عن القرآن فخالفني، فانتقمت منه. يا أحمد أجبني إلى القول بخلق القرآن حتى أطلق عنك بيدي. فأعاد أحمد قولته: أعطوني شيئا من كتاب الله ﷻ [1].

- **انقطاع حجة المعتزلة ويأس الخليفة المعتصم.**

وركب الخليفة من الهم ما ركبه، فقاموا وفضوا المجلس، وردوا الإمام أحمد إلى السجن، وكان ذلك في رمضان، فذهب إليه رجلان من أصحاب أحمد بن أبي دؤاد يناظرانه ويلزمانه بخلق القرآن، حتى إذا كان وقت الإفطار جئ بالطعام، فحاول أن يفطر فلم يستطع من

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٤٠ بتصرف.

شدة الإجهاد والإرهاق [١].

وفي الليل جاءه قاضي القضاة ابن أبي دؤاد يقول له: إن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس، وإن أجبته جاء إليك وفك قيودك بيديه، فلم يلتفت إليه الإمام فانصرف [٢].

وفي اليوم التالي أعيد أحمد إلى مجلس الخليفة، وأعادوا المناظرة، فإذا جاءوا بكلام ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله قال: ما أدري ما هذا. قال قائل منهم: يا أمير المؤمنين إذا توجهت الحجة له علينا ثبت، وإن ألزمناه بشيء يقول: ما أدري ما هذا؟

قال الإمام أحمد: لقد احتجوا علينا بشيء لا يقوى قلبي ولا ينطق لساني أن أحكيه أنكروا الآثار، وما ظننتهم على هذا حتى سمعتُه منهم. فاحتججت عليهم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ مريم:٤٢، فقالوا: شبه يا أمير المؤمنين [٣].

وهم يعتقدون أن إثبات الصفات تشبيه وتمثيل، ونفيها عدل وتوحيد، فمذهبهم مبني على أمرين أساسين يحددان دوافعهم لتعطيل

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٩/٢٠١ بتصرف، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١١/٢٤٩. وتاريخ الإسلام للذهبي ١٨/١٠٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٣٣٤ بتصرف، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٨/١٠٣ بتصرف، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١١/٢٤٧ بتصرف.

(٣) السابق ١٠/٣٣٤.

الكتاب والسنة:

الأمر الأول: هو قياسهم الخالق سبحانه وتعالى بالقوانين والمقاييس التي تحكم المخلوق، فلم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو خاص بالمخلوق، وهذا باطل لأن الله ﷻ منعنا أن نمثله بشيء من خلقه، وحرم علينا قياس ذاته وصفاته بذوات المخلوقين وصفاتهم، فالله سبحانه وتعالى أثبت لنفسه الوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، ثم أوجب علينا أن نثبت الصفات كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١، فالله ﷻ وحَّد نفسه، ومع ذلك أثبت الصفات اللائقة بجلاله وكماله، فعلمنا أن استواءه ونزوله ويده ووجهه وسمعه وبصره، وكل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته رسوله ﷺ مخالف في الأصل لاستواء المخلوق ونزوله ويده ووجهه وسمعه وبصره وكل ما له من صفات الذات والأفعال.

الأمر الثاني: الذي يحدد مذهب هؤلاء المبتدعة، أنهم لما نظروا إلى الخالق سبحانه وتعالى بقياس التمثيل والشمول وبنفس الكيفية للصورة البشرية، وجدوا أن الصورة التي يتخيلونها عن ذات الله وصفاته صورة قبيحة جدا فوقعوا بين نارين، إما أن يكذبوا بالنصوص الواردة في وصف الله ﷻ بتلك الصورة التي تخيلوها، ويعطلونها عن مدلولها كما فعل الجهم بن صفوان وسائر أتباعه. وإما أن يحولوا مدلول الآيات إلى أمور معنوية مجازية لا تدل على حقيقة معينة، وهذا هو الدافع المباشر لانتشار التأويل حتى عصرنا، والدفاع عنه بكل سبيل، وهو ما فعلته

المعتزلة ومن جاء بعدهم من الأشعرية، كما سنرى على اعتبار أن ذلك أخف الأمرين في اعتقادهم، فالزمخشري المعتزلي ييستخدم هذا المنهج الباطل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ ق:٣٠. حيث قال: سؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته [(١)].

جعل الزمخشري المعتزلي قول الله ﷻ الصريح الواضح الحقيقي أمرا معنويا مجازيا لا حقيقة له، وجعله مجرد خيال لا يدل على شيء، فالله تعالى أثبت لنفسه الكلام صراحة كما يليق بجلاله، وأثبت الكلام لجهنم كما يليق بها، وإن كنا لا ندري كيف تتكلم، والزمخشري نفى ذلك وجعله مجرد خيال. ولو سألنا عن الدافع وراء ذلك لوجدنا الجواب هو قياسهم كلام الخالق على كلام المخلوق بأقيسة التمثيل والشمول، فلو كان الخالق متكلما في نظرهم لكان له لسان وفم وهذا أصل الضلال.

واحتج عليهم الإمام أحمد في مناظرته لهم بين يدي الخليفة المعتصم بحديث الرؤية الذي رواه بسنده عن قَيْس بن أَبِي حَازِمٍ عَنْ جَرِير بْنِ عَبْد الله ﷺ قَال: (كنَّا عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ ليْلةَ البَدْرِ فقَال: إنَّكُمْ ستَرَوْنَ رَبَّكُمْ ﷻ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلبُوا على هَاتَيْنِ الصَّلاتَيْنِ قَبْل طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْل الغُرُوبِ، ثمَ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٣٩٢/٤ نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ق:٣٩ (١).

وأحاديث الرؤية من الأحاديث المتواترة، لكن لما سمع قاضي القضاة أحمد ابن أبي دؤاد هذا الحديث انصرف متوجها إلى على بن المديني من كبار المحدثين، مستغلا أزمته ومحنته وانقطاع راتبه من الدولة لمدة عامين بسبب وقفته للحق، وعدم الاستجابة إلى القول بخلق القرآن، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وما تأخر من مستحقاته، وقال لعلى: هذه هدية من أمير المؤمنين. ثم قال له: يا أبا الحسن ما تقول في حديث الرؤية؟ قال علي بن المديني: حديث صحيح. قال قاضي القضاة: هل عندك فيه شيء؟ قال علي: يعفني القاضي من هذا. قال قاضي القضاة: يا أبا الحسن هذه حاجة الدهر، فاجعل مخرجا لضعفه، ولم يزل به حتى قال علي: في الإسناد من لا يعول عليه، ولا على ما يرويه، وهو قيس بن حازم إنما كان أعربيا. ففرح بن أبي دؤاد وذهب مسرعا إلى مجلس المعتصم يجرح قيسا، وينفي صحة الحديث، فعلم أحمد جهله لأن المحدثين جميعا يعدلون قيسا، فهو من أجود التابعين إسنادا (٢).

قال رجل للإمام أحمد: ما تقول في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ النساء:١١. أليس ذلك عاما في

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ٢٠٣/١ (٥٢٩)، ومسلم في كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٤٣٩/١ (٦٣٣).

(٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لأبي الفرج بن الجوزي ٢١٦/١١.

جميع الأولاد؟ فقال أحمد: خص الله ﷻ بها المؤمنين دون الكافرين. قال أحمد: ما تقول في الوارث إن كان قاتلا أو عبدا فسكت. قال أحمد: وإنما احتججت عليه بهذا لأنهم كانوا يحتجون بالعموم على خلق القرآن في مثل قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الزمر:٦٢. فبينت أن السنة خصصت العموم، فأخرجت القاتل والعبد من عموم الآية [١].

ولم يزالوا به من الصباح حتى الظهر وهو صامد بقوة الله ﷻ وتوفيقه ،وإجراء الحكمة على لسانه، ليدافع عن منهج الحق، أهل السنة والجماعة، حتى غضب المعتصم واكفهر وجهه، وقام من المجلس وتركه، فردوه إلى سجنه وقيوده مرة أخرى.

- **المعتصم يأمر بجلد الإمام أحمد لإثباته صفات الله.**

وفي الصباح أدخل الإمام أحمد بن حنبل على الخليفة، وقد ملئت الدار بالحاضرين، فجعلوا ينقلونه من موضع إلى موضع، فيرى سيافين وجلادين وأناسا آخرين أعدهم المعتصم لينالوا من الإمام إذا أصر على موقفه، فلما انتهى إلى مجلس الخليفة أقعده، ثم قال للحاضرين: ناظروه وكلموه، فناظروه وكلموه وصوت الإمام يعلوا أصواتهم، وحجته تدحض شبهاتِهم حتى ضاق به المعتصم زرعا، وبلغ منه الغضب والكرب مبلغه، فوسوس الخبيث أحمد بن أبي دؤاد وهمس للخليفة قائلا: إن تركته سيقول الناس: إنك تركت مذهب المأمون ووصيته،

---

(١) حلية الأولياء ٩/٢٠٠ بتصرف.

وأنه غلب على خليفتين. فهاج الخليفة وانتصر لسلطانه، وقام إلى أحمد وقال: عليك اللعنة خذوه واسحبوه، وقيدوه وعلقوه.

ثم جلس على كرسي ونادي: أحضروا العقابين والسياط. والعقبان خشبتان منصوبتان، يربط فيهما المجلود من يديه، ويرفع عن الأرض ليبقى معلقا فيهما. فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، الله الله، إن رسول الله ﷺ قال: (لا يَحِل دَمُ امْرِئ مُسْلمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وَأني رَسُول اللهِ إلا بِإحْدَى، ثلاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ للجَمَاعَةِ) [(١)].

وإنه ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِل النَّاسَ حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذا فَعَلوا ذلكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ على اللهِ) [(٢)].

يا أمير المؤمنين بم تستحل دمي ولم آت شيئا من هذا؟ يا أمير المؤمنين: تذكر وقوفك بين يدي الله ﷻ كوقوفي بين يديك، فارتجف الخليفة المعتصم من قوله، وكأنه أراد أن يعفو عنه، فقال أهل الضلال

---

(١) رواه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى: أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ٦/٢٥٢١ (٦٤٨٤)، ومسلم في كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم ٣/١٣٠٢ (١٦٧٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١/١٧ (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥٢ (٢١).

من المعتزلة: يا أمير المؤمنين إنه كافر ضال مضل، هو والله ضال مضل مبتدع. وتتابع الحاضرون يلعنون الإمام ويسبونه. قال أحمد: فأمر بي فقمت بين الخشبتين وجئ بكرسي فوقفت عليه، فهمس إلىّ بعضهم وأمرني أن آخذ بيدي بأي الخشبتين، فلم أفهم ما قال، فتخلعت يداي ثم أمر بضربي.

كان الجلاد الذي قام بتعليق الإمام أحمد وربطه في الخشبتين ينفذ الأمر خوفا من الخليفة، فأشفق على الإمام، وهمس إليه دون أن يسمع المعتصم أن لا يترك جسده ويديه للحبل؛ لأن مفصل اليدين لا يتحمل ثقل الجسم، فأراده أن يمسك بيديه في الخشبتين، لكن الإمام أحمد علق بالخشبتين وصار بينه وبين الأرض مقدار قبضة [١].

قال الخليفة المعتصم: اضربوه، فلما ضرب أحمد رحمه الله سوطا، قال: بسم الله والحمد لله. فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق. فلما ضرب الرابع قال: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا [٢].

وقد اجتمع الناس وكبار المحدثين في الوقت الذي يضرب فيه الإمام وهم في ثورة وغضب، بعضهم خارج أسوار القصر ينتظرون خروج

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٣٣٤ بتصرف.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي١١/٢٥٥، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/٥١، وطبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى ١/١٦٥، نشر دار المعرفة.

الإمام، وبعضهم في الطرقات يدعون للإمام بالصبر والثبات، وبعضهم في بيت عاصم بن علي، ومعهم أبو عبيد القاسم بن سلام وإبراهيم بن الليث وغيرهم .

قال عاصم بن علي: ألا يقوم رجل معي فنأتي الخليفة فنكلمه، فما يجيبه أحد من الخوف وبطش الخليفة. فقال أحدهم: أنا أقوم معك، ولكن أني لعاصم بن علي أن تأتيه الجرأة في الحق، وقد امتحن في خلق القرآن فأجاب بأنه مخلوق. وقد كانت بنات عاصم قد أرسلن لأبيهن أن يبلغ أحمد أنهن يقلن له: إن نعيك أحبُ إلينا من أن تجيب الخليفة إلى القول بخلق القرآن. وكذلك كان موقف سائر النساء من المحنة بارزا في بكائهن الشديد على الإمام، ودعائهن له بالثبات على الدوام في وجه هذا الظلم والإجرام [١].

وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى باب المعتصم يحجبه الحرس، وهو يرفع صوته بين الناس ويقول: أيضرب سيدنا ومولانا، أيضرب سيدنا ومولانا. ووقف بشر بن الحافي الصوفي خارج القصر حيرانا يدعوا الله ويقول: اللهم ثبته، اللهم ثبته، ويتابع كل من خرج من دار المعتصم ويقول له: إن كان أجاب الخليفة إلى القول بخلق القرآن أدخل فأقوم مقامه، فخرج رجل فقال: لم يجبهم فقال بِشر: الحمد الله [٢].

وظلت القلوب معلقة بين دعاء بالتثبيت للإمام أو دعاء على الظالمين

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/٢٤٩ بتصرف.

(٢) السابق ١٢/٢٤٩ بتصرف.

بالانتقام، وقد أرسلوا أبا بكر المروزي ينقل أخبار المحدثين إليه وينصحه بالإجابة للخليفة تقية. فيقول له أحمد: أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء الناس. ولم يزل الإمام قائما بين العقابين والسياط تقطع جسده، كل جلاد يضرب سوطين ثم ينصرف، حتى ذهب وعيه بعد ثمانية وثلاثين سوطا، فأحدث ذلك ذعرا عند الحاشية والزبانية، فلما سكن الضرب عاد عقله مرة أخرى.

قام المعتصم حتى وقف أمامه وقال له: يا أحمد أجبني إلى القول بخلق القرآن، وأنا أطلق عنك بيدي. فقال أحمد: آتوني شيئا من كتاب الله ﷻ وأنا أجيبكم. وجعلوا يقولون له: ويحك الخليفة على رأسك. فلم يقبل عليهم بشيء، فأعادوا الضرب، ثم دعاه الخليفة مرة أخرى فلم يعقل من شدة الضرب حتى ذهب عقله وحسه، فأرعب ذلك المعتصم وأحس بقوة الحق التي تدفع الإمام أحمد إلى الصبر والثبات، فأمر به فأطلقوه [(١)].

وأفاق الإمام أحمد من غيبوبته فوجد القيود قد حلت من يديه ورجليه. قال له أحدهم: إنا كببناك على وجهك، وطرحنا عليك بارية ودسناك بأقدامنا [(٢)].

وضرب الإمام أحمد رحمه الله نحو ثمانين سوطا ضربا مبرحا شديدا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٣٣٤ بتصرف، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٩/٢٠٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/٤٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٢٥٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٨/١٠٨.

حتى سال دمه على ثيابه، وتقطع اللحم من جسده، فحملوه من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم نائب الخليفة على بغداد، وكان الإمام صائما، فجاءوا بشراب ليفطر، فامتنع من ذلك وأتم صومه، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وقد جعل الإمام أحمد كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة، وكان يتلوا في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ النور:٢٢. وكان رحمه الله يقول: ماذا ينفعك أن يعذب المسلم بسبك وقد قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الشورى:٤٠ [(١)].

وقد جاءه الجراح فقطع من جسد الإمام لحما ميتا، وجعل يداويه، ونائب الخليفة يسأل عنه في كل وقت، فالخليفة المعتصم ندم على ما كان منه في حق الإمام أحمد بن حنبل ندما شديدا، وجعل يسأل النائب عنه والنائب يستعلم خبره، فلما عوفي فرح المعتصم، وفرح المسلمون بذلك.

قال الحسن بن عرفة: (دخلت على أحمد بن حنبل بعد المحنة، فقلت له: يا أبا عبد الله، قمت مقام الأنبياء، فقال لي: اسكت، فإني رأيت الناس يبيعون دينهم، ورأيت العلماء ممن كان معي يقولون ويميلون،

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٤.

فقلت: من أنا؟ وما أنا؟ وماذا أقول لربي غدا إذا وقفت بين يديه جل جلاله؟ فقال لي: بعت دينك كما باعه غيرك، ففكرت في أمري ونظرت إلى السيف والسوط فاخترتهما، وقلت: إن أنا مت صرت إلى ربي ﷻ فأقول: دعيت إلى أن أقول في صفة من صفاتك مخلوقة فلم أقل، فالأمر إليه إن شاء عذب، وإن شاء رحم. قال له الحسن بن عرفة: وهل وجدت لأسواطهم ألما؟ قال: نعم، وتجلدت إلى أن تجاوزت العشرين، ثم لم أدر بعد ذلك، فلما حل العقابان كأني لم أجد له ألما، وصليت الظهر قائما. قال الحسن: فبكيت، فقال لي: ما يبكيك؟ قلت: بكيت مما نزل بك، قال: طالما لم أكفر بالله فما أبالي لو تلفت) (1).

• **ندم أهل العلم الذين قالوا بخلق القرآن تقية.**

وبعد الامتحان أجاب الفقهاء الكبار إلى القول بخلق القرآن تقية، ومنهم أعلام المحدثين كيحيي بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب حيث أقرا بذلك بين يدي الخليفة المأمون، وكذلك أقر أبو نصر التمار، وهؤلاء كانوا عند الإمام أحمد في مرتبة عليا، ولم يكن يتوقع منهم سرعة الإجابة إلى القول بخلق القرآن، فكان رحمه الله يقول فيهم: لو كانوا صبروا وقاموا لله ﷻ لا نقطع الأمر وخافهم الرجل، ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم (2).

---

(1) طبقات الحنابلة ١/١٤٠.

(2) السابق ١٠/٣٣٥.

وشعر كثير من أهل العلم بالندم على إجابته، وعدم الثبات على الحق في وجه الخليفة كما فعل الإمام أحمد. قال أبو معمر القطيعي بعد أن أجاب إلى القول بخلق القرآن وخرج من دار الخليفة: لو تكلمت بغلتي هذه لقالت إنها سنية. يعني أنها على مذهب الإمام أحمد بن حنبل في إثبات الصفات لله ﷻ على ما يليق به، لأن هذه هي الفطرة [١].

وقال سعدويه وقد حج ستين حجة، بعد أن أجاب وخرج من دار الخليفة: يا غلام قدم الدابة على مولاك، فإن مولاك قد كفر. قيل له: ماذا فعلتم؟ قال: كفرنا ورجعنا [٢].

قال أبو بكر المروذي: جاء يحيى بن معين فدخل على أحمد بن حنبل وهو مريض، فسلم فلم يرد عليه السلام، وكان أحمد قد حلف بالعهد أن لا يكلم أحد ممن أجاب حتى يلقى الله ﷻ، فما زال يعتذر ويقول: حديث عمار، وقال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ النحل:١٠٦. فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر، فقال له يحيى: لا تقبل عذرا، فخرج فخرجت بعده، وهو جالس على الباب خارج بيت الإمام أحمد، فقال: إيش قال أحمد

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/٧٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١/٢٣٩ نشر دار الفكر بيروت، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦/٢٧١.

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٤٣، والبداية والنهاية ١٠/٣٣٥.

بعدي؟ قلت: قال: يحتج بحديث عمار، وحديث عمار قال فيه: مررت بالمشركين وهم يسبونك، فنهيتهم فضربوني، وأنتم قيل لكم نريد أن نضربكم استجبتم [(١)].

يقصد الإمام أحمد أن يحيى بن معين وباقي علماء الحديث خافوا واستجابوا لمجرد تهديد الخليفة المأمون لهم بالضرب، وقالوا بقوله في خلق القرآن، فأي وجه شبه بين حديث عمار بن ياسر ﷺ وما فعلتم. وذلك أن المشركين من بني المغيرة أصابوا عمار بن ياسر ﷺ لما نهاهم عن سب النبي ﷺ فأخذوه وعذّبوه وغطسوه في بئر ميمون حتى كاد يموت، وقالوا: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك دون أن يشعر، وقلبه كاره، ثم تركوه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بالذي لقي من قريش، فأنزل الله تعالى عذره، وبين أنه سبحانه يعاقب من أتى الكفر على اختيار واستحباب فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ النحل:١٠٦.

قال أبو بكر المروذي: فسمعت يحيى بن معين يقول: مررها يا أحمد غفر الله لك، فما رأيت والله تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك. وقوله مررها يا أحمد، أي مرر هذه السقطة التي وقعنا فيها، وسامحنا عليها [(٢)].

---

(١) طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى ١/٤٠٤.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/٢٥٧.

• المعتصم يندم على تعذيب أحمد ويفتح عمورية.

ندم المعتصم على جلده للإمام أحمد، وأرسل إليه من يتابع خبر معافاته من آثار ما فعل به، حتى صح الإمام أحمد وبرئ، وبقيت إبهاماه منخلعتين يضربان عليه في البرد، فيسخن له الماء، وقد جعل الخليفة المعتصم في حل من ذنبه إلا أهل البدعة من المعتزلة [١].

كانت الصلة بينهما طيبة إلى وقت وفاته وإن كانت المعتزلة لم تسأم من الوقيعة فيه عند الخليفة، وكان من بركة عفو الإمام أحمد عن المعتصم فتحه عمورية. وذلك أن ملك الروم خرج إلى بلاد المسلمين فنهب حصناً من حصونهم يقال له زبطرة، وقتل من به من الرجال وسبى الذرية والنساء، وكان من جملة السبي امرأة مسلمة هاشمية، فلطمها ملك الروم على وجهها، فاستغاثت وقالت: وامعتصماه، وامعتصماه. فقال لها هذا العلج الرومي: عساه أن يأتيك على خيل بلق، أي خيل بيضاء تطير بأجنحتها! فبلغ المعتصم ما فعله ملك الروم بالمسلمين، فاستعظمه وكبر عليه، وبلغه ما قالت الهاشمية، فقال وهو في مجلسه: لبيك أختاه، لبيك أختاه!

ونهض من ساعته وصاح في قصره: الرحيل الرحيل! ثم ركب دابته وتجهز تجهزا لم يتجهز بمثله خليفة من قبله، فقد سار في خمسمائة ألف مقاتل، وتوجه إلى أعظم بلادهم وقتها وهي عمورية، فحاصرها حتى

---

(١) طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى ١/٤٠٤.

فتحها، ثم هدمها وأزال آثارها كأنها لم تكن، واستنقد المرأة المسلم عزيزة بعزة الإسلام. وقال لها إذا مت: اشهدي لي عند جدك المصطفى ﷺ أني جئت لخلاصك [(١)].

وعلى الرغم من ذلك ظل أمر العقيدة أيام المعتصم والمذهب الرسمي للخلافة الإسلامية في جميع الأقطار هو مذهب المعتزلة، بسبب حاشية الخليفة، وبطانة السوء من اتباع الجهمية وعلماء الكلام، فبقيت المساجد مكتوب عليها: "لا اله إلا الله رب القرآن وخالقه". وكان الفقهاء والمحدثون وغيرهم من العلماء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد ممنوعين من الجلوس في المساجد للفتيا وتبليغ العلم، والسجون مكتظة بمن أنكر على هؤلاء المعطلة الذين يعبثون بدين الله ﷻ تحت مسمى التأويل، والناس يهربون إلى البادية، ويفرون إلى البراري خوفا من البطش والقتل وفرارا بدينهم، فكم من دماء سفكت، وكم من رقاب قطعت، وكم من رؤوس علقت، وكم من قضاة وأئمة عزلت؛ لأنهم عارضوا منهج الجهمية الذي أوجبوه على كل القائمين في مؤسسات الدولة الإسلامية.

ولم يبق في الشارع العام إلا كل جبان يخاف على نفسه، فما من فقيه، أو محدث، أو إمامٍ، أو مؤذن، أو قاضٍ، أو معلم إلا ويقول راغبا

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ٦٣/٢، نشر دار بن كثير، دمشق، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٠/٦، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، وتاريخ ابن خلدون ٣٢٧/٣ نشر دار القلم، بيروت.

أو راهبا بنفي أوصاف الله ﷻ وتعطيلها، وأن الله ﷻ لا يرى في الآخرة ولا يشار إليه في جهة، وأن الله ﷻ لا يتكلم بكلام يسمع، وأن القرآن مخلوق، وأن تقديم العقل والهوى على كتاب الله ﷻ هو أساس التوحيد وأصل العدل.

وقد ظهر جيل جديد من الأمة شب وترعرع في هذه البيئة التي تمثل مستنقعا فكريا نتن الرائحة بسبب انتشار جيفة الأصول الخمسة لمذهب المعتزلة، مستغلين سطوة بعضِ الخلفاء، وبعض الأغَبَياءِ الذين لجموا العلماء الضعفاء من النطق بكلمة الحق، وتحصين الأمة من أفكار البدع والتشبيه والتعطيل والشرك.

• **قصة أحمد بن نصر الخزاعي في إثبات الصفات.**

لما كثر فساد المعتزلة وإرهابهم لعامة المسلمين سنين طويلة حتى طُمس نور الحق في توحيد أسماء الله وصفاته، وغلبت البدعة والتعطيل الذي أطلق عليه المعتزلة توحيدا، وكذلك ظهر الشرك في الربوبية وأن العباد يخلقون أفعالهم دون الله ﷻ تحت شعار الأصل الثاني من الأصول الخمسة، والمسمى عند المعتزلة بالعدل، لما فشت أفكار الضلال تلك اجتمع جماعة من العامة من أهل بغداد على عالم من علماء السلف يقال له أحمد بن نصر الخزاعي، والتف عليه من الألوف أعداد، وتطوع للدعوة مع أحمد بن نصر رجلان، أحدهما يقال له أبو هارون السراج حيث يدعو أهل الجانب الشرقي من بغداد، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي، فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة وجماعات

غزيرة أشبهت المظاهرة العامة في بغداد.

ثم تعاهد الناس فيما بينهم أن يعيدوا الأمة إلى مذهب السنة، والقضاء على مذهب الجهمية والبدعة، فبايعوا أحمد بن نصر الخزاعي على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على الخليفة الواثق الذي تولى الخلافة بعد أبيه المعتصم، لاسيما أنه كان عنيدا مصرا على هذا المذهب الخبيث، وأيضا انتشرت الفواحش والرزائل والمعاصي بين أمرائه وحاشيته وبطانته، فتواعدوا في ليلة حددوها أن يجتمع الناس كلهم للخروج على السلطان، وهي ليلة الجمعة الموافقة للثالث من شعبان سنة مائتين وواحد وثلاثين [١].

غير أن خطأ ما حدث في خطتهم، ووشي بهم بعض المنافقين من شيعتهم، وأعلموا حرس الخليفة عن ليلتهم، فقبضوا على أحمد بن نصر وأتباعه في ليلة جمعتهم، وأرسلوا بهم إلى الخليفة في سرى من رأى، فأحضر الخليفة جماعة من الأعيان، وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، وأحضر أحمد بن نصر الخزاعي، فلما أوقفوه بين يدي الواثق، لم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بل أعرض عن كل ذلك وقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله.

وكان أحمد بن نصر الخزاعي قد رتب نفسه على أنه سيقتل، فاغتسل

(١) السابق ٥/٢٨٣ بتصرف.

قبل أن يقبضوا عليه، وتطيب بحنوطه استعدادا للقاء ربه، وشد ثيابه على عورته حتى لا يتكشف، فقال له الواثق: فما تقول في ربك؟ أتراه يوم القيامة؟ (١).

قال يا أمير المؤمنين: قد جاءت آيات القرآن ونصوص السنة بذلك قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ القيامة:٢٢/٢٣. وقال رسول الله ﷺ: (إنكم تَروْن ربكم كما تَروْن هذا القَمر، لا تضامون في رؤيته). ونحن على تصديق الخبر. قال الواثق: تكذب على رسول الله، فقال للواثق: بل أنت الذي تكذب على رسول الله ﷺ، فقال: ويحك أيرى كما يُرى الجسم المحدود؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته. فلما قال الواثق ما قال في إنكار ما ثبت عن رسول الله ﷺ، أراد أحمد بن نصر الخزاعي أن يحتقر الواثق، وأن يبالغ في إغاظته وإهانته بإثبات الصفات التي وردت في السنة والتي يرى المعتزلة أنها تشبيه وشرك وتجسيم، وظاهرها باطل مستحيل.

قال أحمد بن نصر للواثق: وحدثني سفيان بحديث يرفعه إلى رسول الله ﷺ: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ كَقَلَبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) (٢).

وكان النبي ﷺ يُكْثِر أنْ يقول: (يا مُقَلبَ القُلُوبِ، ثبتْ قَلبِي على

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٠٤ بتصرف.

(٢) مسلم في القدر، باب تصريف الله القلوب كيف شاء ٤/٢٠٤٥ (٢٦٥٤).

دِينكَ) (١). فقال له إسحاق بن إبراهيم وإلى الخليفة على بغداد: ويحك، انظر ماذا تقول؟ فقال: أنت أمرتني بذلك؟ فأشفق إسحاق من ذلك، وقال: أنا أمرتك؟ قال: نعم، أنت أمرتني أن أنصح للخليفة، ومن النصح له أن يثبت ما أثبته الله ﷻ لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ.

قال الخليفة الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟ فأكثروا القول فيه، فقال عبد الرحمن بن إسحاق، وكان قاضيا على الجانب الغربي من بغداد فعزل، وكان صديقا لأحمد بن نصر قبل ذلك فأقر بخلق القرآن، قال: يا أمير المؤمنين هو حلال الدم. وقال آخر: اسقني دمه يا أمير المؤمنين. فقال الواثق: لابد أن يأتي ما تريد. وقال أحمد بن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب، لعل به عاهة، أو نقص عقل. فقال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي، فإني أحتسب خطأي إلى هذا الكافر، الذي يعبد ربا لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ثم نهض إليه بالسيف وضربه على عاتقه وهو مربوط بحبل، وقد أوقفوه على نطع. ثم ضربه مرة أخرى على رأسه، ثم طعنه بالسيف في بطنه، فسقط صريعا على النطع ميتا رحمه الله (٢).

---

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/٤٤٨ (٢١٤٠)، ورواه أحمد في المسند ٣/١١٢ (١٢١٢٨)، وصححه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٠٢)، وصحيح سنن الترمذي (٢١٤٠)، وصحيح الجامع (٤٨٠١).

(٢) تاريخ الخلفاء ١/٢٩٦، وطبقات الحنابلة ١/٨١ بتصرف.

ثم قام أحد الحاضرين بسيفه فضرب عنقه وحز رأسه، ثم حملوا جثته مفصولة عن رأسه، وكان في رجليه زوج من القيود، وعليه سراويل وقميص، فعلقت الجثة في سري من رأى فصلب فيها، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما معدودة، وفي الغربي أيضا، وعنده الحرس في الليل والنهار، وقد علقوا في أذنه رقعة مكتوب فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي، ممن قتل على يدي الخليفة الواثقِ بالله أميرِ المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح بإثبات الصفات، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بكفره وخروجه على الحق، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه [1].

ثم أمر الخليفة الواثق باعتقال أتباعه، فأودع نحو ثلاثين رجلا منهم في السجون، وأطلق عليهم الخليفة اسم الظلمة، ومنعوا أن يزورهم أحد، وقيدوا بالحديد، ومنعوهم من حقهم في الطعام والشراب، وسائر الحقوق الأخرى التي كانت تجري على المحبوسين حتى ماتوا [2].

قال الحافظ ابن كثير: (وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ذكره يحي بن

---

(١) السابق ٣٤١/١، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥٢/٢، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٧٧/٥.

(٢) البداية والنهاية ٣٠٤/١٠.

معين يوما فترحم عليه وقال: قد ختم الله ﷻ له بالشهادة. وذكره الإمام أحمد بن حنبل يوما فقال رحمه الله: ما كان أسخاه بنفسه لله ﷻ لقد جاد بنفسه له) [١].

ولم تزل رأسه منصوبة في بغداد من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان في سنة إحدى وثلاثين ومائتين ٢٣١هـ، إلى ما بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ٢٣٧هـ حين غاب ظلام الباطل، وظهرت شمس الحق، فجمع أهله بين رأسه وجثته، ودفن بالجانب الشرقي من بغداد، وكان ذلك بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق [٢].

- **نصرة السنة وإكرام الإمام أحمد حتى وفاته.**

وقد ظهر انتقام الله ﷻ وعدله في الظالمين، ومنتُه وفضله على المؤمنين، فاستبشر الناس بولاية المتوكل خيرا؛ فإنه كان محبا للسنة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق ألا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن.

ثم كتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعاه إسحاق وأكرمه لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه، وسأله عن القرآن؟ فقال له أحمد: سؤالك هذا سؤال تعنت، أو

---

(١) السابق ١٠/٣٠٥ .

(٢) السابق ١٠/٣٠٦ .

استرشاد؟ فقال: بل سؤال استرشاد. فقال: هو كلام الله ﷻ منزل غير مخلوق، فسكن إلى قوله [(١)].

ولما علم أهل البدعة ظهور المودة بين الخليفة والإمام أحمد حاولوا الوشاية به، فزعموا للخليفة أنه يريد قلب نظام الحكم. وزعم رجل من المبتدعة عند الخليفة المتوكل يقال له ابن البلخي، أن رجلا من العلويين نصبه أحمد بن حنبل خليفة، وقد آواه إلى منزله، وهو يبايع الناس له في الباطن، فأمر الخليفة نائب بغداد أن يحاصر العسكر منزل الإمام أحمد من الليل، فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطح، فوجدوا الإمام جالسا في داره مع عياله، فسألوه عما ذكر لهم، فقال: ليس عندي علم من هذا، وليس من هذا شيء، ولا هذا في نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية، وفي عسري ويسري، ومنشطي ومكرهي، وأثره على، وإني لأدعو الله ﷻ له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار، ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء وسطح المنزل وغير ذلك، فلم يروا شيئا مريبا [(٢)].

ولما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه، علم أنهم يكذبون عليه كثيرا، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم عطية من الخليفة، فامتنع من قبولها. فقال رسول الخليفة: يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن تقع وحشة أو قطيعة بينك وبين الخليفة، والمصلحة في قبول عطيته،

---

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٣٧ بتصرف.

(٢) السابق ١٠/٣٣٧ بتصرف.

فوضعها عنده ثم ذهب، فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله، وبني عمه، وعياله، وقال لهم: لم أنم هذه الليلة من هذا المال، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من الفقراء من أهل الحديث وغيرهم في بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرقها في الناس، ولم يُبق منها درهما، حتى تصدق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعط منها لأهله شيئا، وهم في غاية الفقر والجهد [١].

وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها، فقال على بن الجهم: يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك، وتصدق بها عنك، وماذا يصنع أحمد بالمال؟ إنما يكفيه رغيف من الخبز. فقال الخليفة: صدقت. وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك، ولم يكن يأكل من ذلك شيئا بالكلية، بل كان صائما يطوي الأيام بالصوم. وقد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لك طعاما ولا يشرب لك شرابا، ولا يجلس على فرشك، ويحرم ما تشربه، فقال: والله لو قام المعتصم من قبره وكلمني في أحمد ما قبلت منه. وجعلت رسل الخليفة تفد إليه في كل يوم تستعلم أخباره وكيفية حاله، وجعل يستفتيه في أموال أحمد بن أبي دؤاد فلا يجيبه بشيء [٢].

وقد كتب رجل من المعتزلة رقعة إلى المتوكل يقول فيها: يا أمير

---

(١) السابق ١٠/٣٣٩ بتصرف.

(٢) السابق ١٠/٣٤٠ بتصرف.

المؤمنين، إن أحمد يشتم آباءك، ويرميهم بالزندقة، فكتب فيها المتوكل: أما المأمون فإنه خلط الحق بالباطل، فسلط الناس على نفسه. وأما أبي المعتصم؛ فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام. وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه. ثم أمر أن يضرب هذا الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم فضربه خمسَمائة سوط، فقال له الخليفة: لم ضربته خمسمائة سوط؟ فقال: مائتين لطاعتك، ومائتين لطاعة الله ﷻ، ومائة لكونه قذف الشيخ الصالح أحمد بن حنبل [1].

واشتد المرض على الإمام أحمد بن حنبل، قال ولده صالح بن أحمد: كان مرضه في أول ربيع الأول سنة مائتين وواحد وأربعين، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم ضعيف، ضيق النفس، واجتمع الناس من الأكابر والعامة بالآلاف اجتمعوا حول بيته لعيادته. وكتب الإمام أحمد وصيته، جاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل، أوصى أنه يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا المسلمين، وأوصى أني قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد

---

(١) السابق ١٠/٣٤٠ بتصرف.

نبيا. ثم أوصى بالصدقة من ماله على من شاء) [١].

قال أبو بكر المروذي: مرض أحمد تسعة أيام، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجا، يسلمون ويرد بيده، وتسامع الناس بمرضه، وتكاثروا على بيته، وسمع السلطان بكثرة الناس، فوكل الحرس ببابه وعلى أبواب الشوارع المؤدية إلى بيته من شدة الزحام، وتحقيقا للنظام، فكان الناس متوافدين عليه في الشوارع والمساجد حتى أغلق بعض الباعة متاجرهم. وكان الرجل إذا أراد أن يدخل عليه ربما دخل من بعض الدور وطرز الحياكة، وربما تسلق بعض المنازل.

وجاء أصحاب الأخبار وهم في منزلة الصحفيين والمراسلين في وقتنا فقعدوا على الأبواب، وجاءه حاجب الأمير فقال: إن الأمير يقرئك السلام، وهو يشتهي أن يراك، فقال: هذا مما أكره، وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره [٢].

قال صالح بن أحمد: ودخل على أبي مجاهد بن موسى فقال: يا أبا عبد الله قد جاءتك البشرى، هذا الخلق يشهدون لك، ما تبالي لو وردت على الله ﷻ الساعة، وجعل يقبل يده ويبكي، ويقول: أوصني يا أبا عبد الله ﷻ ، فأشار إلى لسانه [٣].

(١) تاريخ دمشق ٥/٣٢٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣٣٦ بتصرف.

(٣) السابق ١١/٣٤١ بتصرف.

وكان أصحاب الخبر يكتبون إلى العسكر في الثغور، والبريد يتواصل كل يوم، وجاء بنوا هاشم فدخلوا عليه، وجعلوا يبكون عليه، ودخل عليه شيخ فقال له: اذكر وقوفك بين يدي الله ﷻ، فشهق أبو عبد الله وسالت دموعه. ثم أشار إلى أهله أن يوضئوه، فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي، وهو يذكر الله ﷻ في جميع ذلك، فما أكملوا وضوءه توفى رحمه الله [١].

صاح الناس بالدعاء، وعلت الأصوات بالبكاء، حتى كأن الدنيا قد ارتجت، ولا ترى الشوارع إلا وقد امتلأت، والناس يدعون له ويترحمون عليه، فرحمه الله رحمة واسعة. وقد أمر الخليفة أن يبعثوا له الكفن، فرده أولاد الإمام وقالوا: إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره، وأبوا أن يكفنوه بهذه الأكفان، وكفنوه بثوب غزلته جاريته. وخرج الناس بنعشه، والخلائق من حوله لا يعلم عددهم إلا الله ﷻ، وقد اجتمع عليه من الناس قرابة المليونين ونصف للصلاة عليه. وقد صلى عليه خلق كثير عند القبر بعد أن دفن، لعدم اتساع المكان في المسجد، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر، وذلك لكثرة الخلق الذين اجتمعوا عليه من كل مصر [٢].

وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول: قولوا لأهل البدع، بيننا وبينكم يوم الجنائز. ويعني أن أهل العلم يحمدون عند موتهم بذكر موقفهم من

---

(١) البداية والنهاية ٣٤١/١٠ بتصرف.

(٢) السابق ٣٤١/١٠، وانظر سير أعلام النبلاء ٣٤١/١١ بتصرف.

التمسك بالسنة ومحاربة البدع، والتفاف الناس حول آرائهم. وقد بدا ذلك جليا يوم موت الإمام أحمد، فلا تعرف جنازة في الجاهلية ولا في الإسلام كجنازة الإمام أحمد من كثرة من حضرها. قال عبد الوهاب الوراق: ما بلغنا أن جمعا في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل [(١)].

هذا إكرام الله لعباده المؤمنين وإنعامه على أوليائه الموحدين في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ الرعد: ٢٢.

وقال سبحانه: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ النحل: ٩٦.

- **نصرة السنة وانتقام الله من دعاة البدعة.**

لقد جعل الله ﷻ في قصة الإمام أحمد ومن ناصره على التمسك بالسنة آية شاهدة على عدل الله ﷻ في الظالمين الذين استخدموا قوة الدولة لإرهاب الموحدين، وقتل من خالفهم من عامة المسلمين وخاصتهم، فانظر كيف ظهر انتقام الله ﷻ لأهل الإيمان من أهل الظلم والطغيان؟

دخل عبد العزيز الكتاني على الخليفة المتوكل فقال: يا أمير المؤمنين،

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٣٤٠ بتصرف.

ما رأيت أعجب من أمر الواثق، قتل أحمد بن نصر الخزاعي، وكان لسانه يقرأ القرآن، فوجل المتوكل من كلامه، وساءه ما سمع في أخيه الواثق، فلما دخل عليه وزير الواثق محمد بن عبد الملك بن الزيات، وكان قد حضر قتل أحمد الخزاعي، قال له المتوكل: في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار، إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا. ودخل عليه هرثمة وكان قد حضر التمثيل بجثة أحمد بن نصر الخزاعي، فقال له المتوكل: في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر فقال هرثمة: يا أمير المؤمنين، قطعني الله إرباً إربا، إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا. ودخل عليه الخبيث قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد فقال له المتوكل: في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين، ضربني الله بالفالج أو الشلل إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا [(١)].

وقد تم عدل الله ﷻ فيهم وهم أحياء، فقد أمر الخليفة المتوكل بالقبض على الوزير ابن الزيات وزير الخليفة الواثق، فطلبه الجند ليحضر إلى الخليفة، فركب إليه بعد غدائه، وهو يظن أن الخليفة بعث إليه يوليه كما كان في عهد أخيه الواثق، فانتهى به الرسول إلى دار أمير الشرطة، فاعتقلوه وقيدوه، وأخذوه على الفور إلى منزله، وأخذوا جميع ما فيها من الأموال واللآلئ والجواهر والجواري والأثاث، ووجدوا في مجلسه الخاص آلات الشرب وكاسات الخمر.

---

(١) المنتظم ١٦٨/١١، والبداية والنهاية ٣٠٦/١٠، تاريخ بغداد ١٧٨/٥بتصرف.

وأمر المتوكل أيضا بمصادرة أمواله ومحاصيله وضياعه بمدينة سر من رأى، ثم أمر جنده أن يعذبوه، كما عذب العلماء وحرض على ضربهم وقتلهم وصلبهم وتعليق رؤوسهم. ثم منعوه من الكلام، ونخسوه بالحديد كلما أراد أن ينام، ومكث على هذا الحال عدة أيام، ثم وضعوه بعد ذلك على خشب فيه مسامير، وأوقفوه عليه، ومنعوه من الجلوس أو النوم. ثم أحرقوه في فرن أو تنور، ثم أخرجوه من التنور مشويا وكان فيه رمق، فضرب على بطنه، ثم على ظهره حتى مات، ثم سلموا جثته إلى أولاده فدفنوه، فنبشت الكلاب جثته، وأكلت ما بقي من لحمه وجلده. وقد سبق أن الخليفة المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار، إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا، قال الخليفة المتوكل: فأنا أحرقته بالنار [1].

ماذا حل بالظالمين الآخرين الذين أفسدوا على المسلمين عقيدتهم بأهوائهم وتأويلاتهم الفاسدة؟

بعد مهلك الوزير ابن الزيات، أخرج الخليفة المتوكل رأس الفتنة

---

(١) البداية والنهاية ٣٠٦/١٠، وهذا الفعل من المتوكل لا يجوز لأنه قد ثبت عند أبي داود وصححه الألباني من حديث مُحَمَّد بْن حَمْزَةَ الأَسْلَمِي عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَّرَهُ عَلَى سَرِيَّةٍ قَالَ: فَخَرَجْتُ فِيهَا، وَقَالَ: إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا فَاحْرِقُوهُ بِالنَّارِ، فَوَلَّيْتُ فَنَادَانِي فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاَنًا فَاقْتُلُوهُ وَلاَ تُحْرِقُوهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ. انظر سنن أبي داود كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار ٥٤/٣ (٢٦٧٣)، وانظر صحيح أبي داود ٥٠٨/٢ (٢٣٢٧).

أحمد ابن أبي دؤاد من مدينة سر من رأى إلى بغداد، وذلك بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه ورد أمواله إلى بيت المال، فاهتم واغتم وأصابه الشلل، وأصبح عبرة للناس ببدعته، لا يجد من يقوم على خدمته، أو مساعدته في قضاء حاجته، وسقاه الله ﷻ من الكأس الذي أذاقه للإمام أحمد بن حنبل حين حبسه في قيود كثيرة ثلاث سنوات ليعجز الإمام أحمد عن قضاء حاجته وتطهير نفسه، وقد بقي أحمد بن أبي دؤاد مشلولا أربعة أعوام، وكل من يراه يقول انتقام الله للإمام العالم الجليل أحمد بن حنبل، والشهيد الكبير أحمد بن نصر الخزاعي، فقد ظل هذا الخبيث الذي أذاق الأمة ألوان البدع والابتلاءات يصارع الألم والمرض حتى مات، وهو الذي قال: أصابني الله بالشلل، إن أمير المؤمنين الواثق قتله كافرا مرتدا. لما سأله الخليفة المتوكل عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي [١].

ولما رأى هرثمة المعتزلي ما حدث لرفقائه في المذهب الاعتزالي فر هاربا متخفيا، فمر دون أن يدري بقبيلة خزاعة، وتلك قبيلة أحمد بن نصر الخزاعي، فعرفه رجل من الحي، فقال بأعلى صوته: يا معشر خزاعة، هذا هو الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر وقطع رأسه، فاجتمعوا عليه، وقطعوه إرباً إربا، قطعوا أوصاله، ولم يتركوا شيا من جثته إلا مزقوها [٢].

---

(١) البداية والنهاية ٣٠٦/١٠ بتصرف .

(٢) السابق ٣٠٦/١٠ بتصرف .

وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ غافر:٥١. وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إبراهيم:٤٢.

إن القرآن الكريم له منزلة في قلوب المسلمين لا يزعزعها قوة ظالم، ولا يزلزلها بدعة غاشم، مهما فعل المبتدعون ومهما أيدهم الظالمون، فهو كلام الله ﷻ المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، والمكتوب في المصاحف، والمنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، والمبدوء بسورة الفاتحة، والمختتم بسورة الناس، وقد تلقاه النبي ﷺ بحروفه وألفاظه عن رب العزة، وتلك مسألة مسلمة عند جميع الصحابة والتابعين وأئمة السلف الصالحين.

أما أتباع الجهمية من المعطلة والمبدعة فقد أحدثوا بدعة كبرى تبناها أهل الضلال، وزعموا فيها أن الله ﷻ لا يتكلم، ولم يتكلم بالقرآن، وأن الذي تكلم بحروفه وأصواته هو جبريل أو محمد ﷺ، وبنوا على هذا الأصل الفاسد أن القرآن مخلوق لأن كلام المخلوق مخلوق.

وقد كانت بداية المحنة التي فرضها خلفاء السوء من المعتزلة أبناء الجهمية سنة ٢١٨ هـ، واستمرت أيام الخليفة المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق بن المعتصم، ثم رفعت في عهد المتوكل بن المعتصم سنة ٢٣٢هـ، ذلك الخليفة الذي انتصر لأهل السنة وأكرم إمامهم، الإمام أحمد بن حنبل، وأنهى عهد البؤس الذي سيطرت فيه المعتزلة على الحكم، وفرضوا عقائدهم بالقوة والظلم.

غير أن أمور العقيدة لم تعد على نقائها فيما سلف، بل تشبعت بالآراء الكلامية، والفلسفات العقلية في القضايا الغيبية حتى أصبح النقاء الذي عرف به مذهب السلف قبل المحنة فيه دخن، فقد كان الواقع يعج بالفرق والأحزاب والطوائف المتعددة، التي نتجت عن جيل البدعة والجرأة على تعطيل السنة، ونفي أوصاف الله ﷻ، ومن نظر في كتب الفرق واختلافات المتكلمين التي أعقبت المحنة، وجد من الفوضى الفكرية والأمراض الكلامية ما يصعب تتبعها، أو فهم العلة من الخوض فيها.

وفي خضم تلك المعمعة الفكرية والمعارك العقلية، ولد أبو الحسن الأشعري الذي تنسب إليه فرقة الأشعرية، وهو علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، نشأ بالبصرة يتيما، فتزوجت أمه رجلا من شيوخ المعتزلة يقال له أبو علي الجبائي، فتربى في حجره، وتعلم من فنه في نفي صفات الله [١].

وقد وكان واقع المسلمين الفكري ملوثا بعلم الكلام كما وصفناه، فقد وجد أبو الحسن الأشعري منذ نشأته ساحة من الفكر الكلامي الاعتزالي كالوباء الذي يصعب تحديد مصله، فأخذ ينظر فيها ويقيّمُها، ويجمع أقوال الضالين ويدققها، حتى ألف في ذلك كتابا كبيرا سماه: "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" ووصل إلى قناعة خاصة بيَّن فيها بصورة واضحة أن الأدلة العقلية تكافأت عنده في العقائد الغيبية،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٣٤٧.

ولم يترجح عنده شيء من الآراء الاعتزالية، بل وجدها آراء سقيمة، واعتقادات بدعية، وجاهلية عقلية عقيمة [١].

وقد ذكر أبو الحسن الأشعري أنه كان نائما في ليلة من شهر رمضان فرأى النبي ﷺ في المنام، فقال له: يا علي انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق، فلما استيقظ دخل عليه أمر عظيم، ولم يزل مفكرا مهموما حزينا، ما المقصود بتلك الرؤية ؟ وما المراد منها ؟ ثم بعد أيام رأى النبي ﷺ مرة ثانية في المنام فقال له: يا علي ما فعلت فيما أمرتك به ؟ فقال أبو الحسن الأشعري: يا رسول الله، وما عسى أن أفعل وقد خرجت مذاهب الفقه المروية عنك على محامل صحيحة ؟ فقال لي: انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق، فاستيقظ وهو شديد الأسف والحزن، وعلم أن النبي ﷺ يقصد نصرته في باب العقيدة، والدفاع عما ورد في الكتاب والسنة بالدلالات العقلية، فأجمع على عدم الخوض في تتبع الآراء الكلامية، والنظر في الطريقة السلفية، وأن يكثر من تلاوة الآيات القرآنية، وأن يلم بالأحاديث النبوية في سائر الأمور الاعتقادية.

قال أبو الحسن الأشعري: فلما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان وكان من عادتي أن أسهر في تلك الليلة، أخذني من النعاس ما لم أتمالك معه السهر، فنمت وأنا أتأسف على ترك القيام، فرأيت النبي ﷺ مرة ثالثة، فقال لي: يا علي ما صنعت فيما أمرتك به؟ فقالت: يا رسول

(١) السابق ٣/٣٤٨.

الله، قد تركت الكلام والمتكلمين ولزمت كتاب الله ﷻ وسنتك، فقال لي: أنا أمرتك بنصرة المذاهب المروية عني فإنها الحق، قال: فقلت: يا رسول الله: كيف أدع مذهبا تصورت مسائله، وعرفت دلائله منذ ثلاثين سنة لرؤيا رأيتها ؟ فقال لي: إن الله ﷻ سيعينك ويمدك بمدد من عنده، فاستيقظت وقلت في نفسي: وماذا بعد الحق إلا الضلال، وأخذ في نصرة الآيات والأحاديث التي وردت في إثبات الاستواء وعلو الله ﷻ على خلقة، ورؤية المؤمن لربه، وأنواع الشفاعة بعد الممات، وإثبات سائر الصفات، وفتح الله ﷻ عليه من الأدلة والبراهين بما لم يسمعه أحد من المعاصرين له [١].

وروي أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله أقام على المذهب الاعتزالي أربعين سنة بحكم تربيته في حجر أبي علي الجبائي، فلما شرح الله ﷻ صدره لاتباع المذهب السلفي غاب عن الناس في بيته أسبوعين، ثم خرج إلى المسجد الجامع وصعد المنبر وقال: معاشر الناس، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتابي هذا "الإبانة عن أصول الديانة"، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، وخلع ثوبا كان عليه ورمى به [٢].

وقد ذكر البيهقي في ترجمة أبي الحسن الأشعري أنه لم يحدث في دين

---

(١) السابق ٣/٣٤٩.

(٢) السابق ٣/٣٤٨.

الله ﷻ حدثا، ولم يأت فيه ببدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين والأئمةِ من بعدهم في أصول الدين فنصرها وأيدها، بزيادة شرح وتبيين، وأن ما قالوه وجاء به الشرع في الأصول صحيح في العقول، بخلاف ما زعم أهل الأهواء، أن بعضه لا يستقيم في الآراء، فكان يعمل في بيانه وثبوته، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة، كأبي حنيفة وسفيان الثوري من أهل الكوفة، والأوزاعي وغيره من أهل الشام، ومالك والشافعي من أهل الحرمين، ومن نحا نحوهما من أهل الحجاز، وغيرها من سائر البلاد، وكأحمد بن حنبل وغيره من أهل الحديث والليث بن سعد وغيره، وأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري إمامي أهل الآثار، وحفاظ السنن التي عليها مدار الشرع.

وحين كثرت المبتدعة في هذه الأمة، وتركوا ظاهر الكتاب والسنة، وأنكروا ما ورد من صفات الله تعالى، وجحدوا المعراج وعذاب القبر والميزان، وأن الجنة والنار مخلوقتان، وأن أهل الإيمان يخرجون من النيران، وما لنبينا ﷺ من الحوض والشفاعة، وما لأهل الحنة من الرؤية، وأن الخلفاء الأربعة كانوا محقين فيما قاموا به من الولاية، وزعموا أن شيئا من ذلك لا يستقيم على العقل، ولا يصح على الرأي، أخرج الله ﷻ من نسل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه إماما قام بنصرة دين الله ﷻ، وجاهد بلسانه وبيانه كل من صد عن سبيل الله ﷻ، وزاد في التبيين لأهل اليقين أن ما جاء به الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه

الأمة أمر مستقيم على العقول الصحيحة [(١)].

• الفرق بين اعتقاد الأشعري وعقيدة المتكلمين الأشعرية

ظهر المذهب الأشعري بعد عصر المعتزلة متبنيا بعض الأصول العقلية الاعتزالية، واستمر من وقتها حتى الآن. وبعد استقراء ما تركه أبو الحسن الأشعري من تراث، ومقارنته بما ورد في أقول العلماء الذين انتسبوا إلى المذهب الأشعري، تبين أن الفرق واسع بين عقيدة الأشعري، والمنتسبين إليه من المتكلمين الأشعرية الذين يزعمون أنهم هم أهل السنة والجماعة، بل بينهما بون شاسع، فقد نصر أبو الحسن الأشعري ما كان عليه السلف الصالح ومنع التأويل، ودافع عن مذهبهم وحارب البدعة بالنصوص النقلية وملكاته العقلية، أو بمعنى آخر استخدم عقله وخبرته في علم الكلام لنصرة النصوص وإثباتها.

وذلك خلاف ما عليه علماء الأشعرية من وقتها حتى اليوم في كثير من المؤسسات التعليمية، فهم بزعمهم قالوا: نصالح أو نوفق أو نقرب بين طريقة السلف في تصديق خبر الله ﷻ الذي ورد به النص القرآني النبوي، والمنهج الاعتزالي الكلامي العقلي الذي يصدق من القرآن والسنة ما يوافق العقل ويعطل بالتأويل ما يخالفه، فأخذوا طريقة المعتزلة التي قرروا بها الأصول الخمسة، والمبنية على تقديم العقل على النقل، ثم نظروا بها إلى نصوص الكتاب والسنة، فما وافق أصولهم أخذوه وما

(١) السابق ٣/٣٩٧.

خالفها عطلوه بالتأويل، ولو كان باطلا، فأظهروا لنا منهجا مسخا مشوها مخنثا، مذبذبين فيه لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، وهو في حقيقته أشد تعقيدا من مذهب المعتزلة؛ لأن رؤيتهم العقلية لا تثبت لله إلا خمس صفات سلبية فقط، وسبع صفات معنوية فقط، وما عدا ذلك مما ورد من النصوص الخبرية فهي نصوص موهمة للتشبيه والجسمية وإثباتها لله كما أثبتها لنفسه ضلال مبين.

وقد كان الإمام أبو الحسن الأشعري دائما ما يفند مذهب المعتزلة ليثبت نصوص السنة، فقد كان منهجه منهجا قرآنيا نبويا يقدم فيه النقل على العقل، ويبذل ما استطاع من الجهد ليثبت ما أرده الله ورسوله ﷺ من النصوص، فخلف لنا اجتهادات رائعة في إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وقد تقدم الحديث عن منهجه بما يغني عن إعادته.

أما الأشعرية بعد وفاة أبي الحسن الأشعري، فأئمة مذهبهم وضعوا أصوله وأركانه، وطوروا مذهبا عقليا هجينا مترهلا هشا مسخا مخنثا نسبوه ظلما وزورا للإمام أبي الحسن الأشعري هو منه براء. وذلك لأن هذا المذهب المنسوب إليه تعددت فيه الآراء الكلامية المخلوطة بالفلسفية العقلية اليونانية لتكون خليطا من أصول المذهب الاعتقادية، فلم يقم هذا المذهب الباطل على منهج أبي الحسن الأشعري الذي وضعه في كتابه الإبانة أو بقية كتبه، وإنما قام على أصول مبتدعة شأنهم فيها شأن المعتزلة، فبدا مذهبهم مذهبا يعبر عن معتزلة جدد، هيمنوا على العالم

الإسلامي من وقتها إلى الآن.

ومن أبرز أئمة هذا المذهب الأشعري السقيم القاضي أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب بن محمد (ت:٤٠٢هـ) وهو من كبار علماء الكلام، وأبو إسحاق الإسفراييني (ت:٤١٨هـ)، وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة القشيرية (ت:٤٦٥هـ)، وأبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي الفيروز أبادي الشيرازي (ت:٤٧٦هـ)، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤٧٨هـ)، وأبو حامد الغزالي الصوفي (ت:٥٠٥هـ).

ومن أشدهم وأخطرهم قبل توبته وعودته لمذهب السلف فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ)، وهو أبو عبد الله محمد الطبرستاني الرازي الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب، كان فقيها شافعيا، قال عنه ابن خلكان: (إنه فريد عصره، ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات) [(١)].

واعتقاد الرازي هو المعبر عن المذهب الأشعري في مرحلته الأخيرة، تلك المرحلة السائدة الآن في البلاد الإسلامية والمقررة على طلاب المعاهد والجامعات الإسلامية حيث خلط الكلام بالفلسفة.

قال فيه الحافظ ابن حجر رحمه الله: (الفخر بن الخطيب صاحب التصانيف رأس في الذكاء والعقليات، لكنه عري من الآثار، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث الحيرة، نسأل الله أن

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ٩/٢٤٩.

يثبت الإيمان في قلوبنا، وله كتاب "السر المكتوم في مخاطبة النجوم"، وهو سحر صريح، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى) [(١)].

ومصدر التلقي عند الأشعرية ليس مبدأه الكتاب والسنة كما هو الحال عن أبي الحسن الأشعري وسائر علماء السلف، بل أساسه القواعد المظلمة لعلم الكلام، ولذلك فإنهم يقدمون العقل على النقل عند توهم التعارض في نصوص القرآن والسنة، كما أنهم لا يحتجون بأحاديث الآحاد على تقرير الاعتقاد حتى لو ثبتت في الصحاح؛ فهي عندهم لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد، ولا مانع عندهم من الاحتجاج بها في الصلاة أو بقية الأحكام، أو يأخذونها إن كانت لتقوية مذهبهم وتثبيت أصولهم، أو فيما لا يعارض قوانينهم في الصفات السلبية الخمس، أو الصفات المعنوية السبع. أما الأحاديث المتواترة لو عارضت أصولهم العقلية فيجب تأويلها بأي وسيلة، مقبولة كانت أو غير مقبولة.

ولا يخفى مخالفة هذا المذهب لما كان عليه السلف الصالح أصحاب القرون الفاضلة، ومن سار على دربهم، فجميع أصحاب النبي ﷺ صدقوا خبر الواحد ولم يكذبوه.

قال أبو طالب المكي رحمه الله: (فإنا قوم متبعون نقفوا الأثر غير مبتدعين بالرأي والمعقول نرد به الخبر، وفي رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام من قبل أن الناقلين إلينا ذلك، هم ناقلو شرائع الدين

---

(١) لسان الميزان ٤/٤٢٦.

وأحكام الإيمان، فإن كانوا عدولا فيما نقلوه من الشريعة، فالعدل مقبول القول في كل ما نقلوه، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من إخبار الصفات، فالكذب مردود القول في كل ما جاء به) [١].

والقصد أن منهج أبي الحسن الأشعري منهج سلفي قائم على تصديق كل خبر ورد في الكتاب، أو صح في السنة على وجه اليقين، وتنفيذه الأمر على وجه الكمال، فقد سعى بكل حجة نصية، أو عقلية إلى إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وما أثبته رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فحقيقة مذهبه امتداد لمنهج السلف الصالح في التعامل مع نصوص الوحي.

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبى طالب المكي ٢/١٢٤.